الفصل السابع (١)

غرب آسيا ـ قدوم الأقوام الهندو ـ أوربية

الشعوب الهندو ـ أوربية وتوزيعها

لقد رأينا كيف كانت الصحراء العربية موئلا لقدر كبير من السكان الرحل الذين ينتقلون بصفة مستمرة من المناطق العشبية على حافة الصحراء مهاجرين إلى المدن ، ليبدأو حياة مستقرة . وكما يوجد أراض عشبية فى الجنوب فإننا نجد أراض مماثلة لها فى الشمال تمتد فى نطاق واسع من الدانوب الأدنى وتتجه صوب الشرق على طول الشاطىء الشمالى للبحر الأسود ، مخترقة جنوب روسيا متوغلة فى آسيا شمالا وشرقا حتى بحر الخزر (قزوين) .

وكانت هذه المناطق آهلة بسكان من البدو الرحل فى العصور الغابرة ، وبين الحين والحين مدى آلاف من السنين ، كان ينحدر هؤلاء البدو الشماليون إلى أوربا وغرب آسيا ويستقرون بهما ، تماما كما انحدر الساميون من الصحراء الجنوبية إلى منطقة الهلال الخصيب .

واندمج بين هؤلاء البدو الشماليين منذ عصور موغلة فى القدم عنصر من الجنس الأبيض يعرف باسم الهندو — أوربية . وأصبح هؤلاء الهندو — الأوربيون أجداد الشعوب الناهضة القوية التى تقطن أوربا وأمريكا اليوم . ومن زمن قديم بدأ الناس فى الهجرة متجهين فى سبل متفرقة حتى استقر بهم المقام فى منطقة واسعة تبدأ غربا من الحدود الشرقية للهند متجهة صوب الغرب ومخترقة كل أوربا حتى المحيط الأطلسى ، ومن هنا جاءت تسميتهم بالهندو — أوربيين ، بيد أن هذا النطاق الشمالى العظيم قد قوبل فى الجنوب بنطاق مماثل من الشعوب السامية ، يمتد من بابل فى الشرق مخترقا

---

١ — يقابل هذا الفصل ، فى الاصل الانجليزى ، الفصل الثامن . أما الفصل السابع من الاصل الانجليزى ، فقد رأينا حذفه لاعتبارات خاصة (المعرب)

فينيقيا والممالك اليهودية صوب الجنوب حتى قرطاجنة وبعض المدن السامية التى أسسها الفينيقيون فى غرب البحر الأبيض المتوسط .

وسنرى ابتداء من الآن أن تاريخ العالم القديم ليس إلا تاريخا للصراع الذى احتدم بين هـذا النطاق السـامى الجنوبى الذى جاء من المناطق العشبية الجنوبية ، وبين النطاق الهندى الأوربى الشمالى ، الذى قدم من المناطق العشبية الشمالية ليواجه الحضارة القديمة الممثلة فى النطاق الشمالى، وهكذا ، إذا نظرنا إلى الجدول فى شكل ٥٢ نجد أن كلا الجنسين يواجه كل منهما الآخر عبر البحر الأبيض المتوسط ، وكأنهما جيشان عظيمان يقفان قبالة بعضهما على خط يمتد من غرب آسـيا حتى المحيط الأطلسى وتمثل الحروب التى نشبت فيما بعد بين روما وقرطاجنة بعض العمليات على الجناح السامى الأيسر بينما يمثل انتصار الفرس على الخلدوكيين حدثا مشابها على الجناح السامى الأيمن .

انتهى هذا الصراع الطويل بانتصار الهندو — أوربيين انتصارا مبيناً وتم لهم التغلب على قلب الجيش وجناحيه عندما أصبح للاغريق والرومان السيادة المطلقة على عالم البحر الأبيض المتوسط بأسره . وتلا هذا النصر صراع طويل آخر نشب بين أعضاء النطاق الشمالى أنفسهم فى سبيل الوصول إلى مركز الصدارة فيه .

وأخذت السيادة فى النطاق الشمالى تنتقل من طرفه الشرقى إلى طرفه الغربى مبتدئة بالفرس ، ثم الإغريق ، وأخيراً الرومان الذين بسطوا سلطانهم على حوض البحر الأبيض المتوسط والعالم الشرقى .

ولكن دعنا الآن نعود ثانية إلى ذلك الوقت الذى سبق هجرة الشعب الهندو — أوربى عن وطنه الأصلى فى المناطق العشبية فنرى أن الدراسات الحديثة لم تقطع برأى فى هـذا الموضـوع بتحديد المنطقة التى كان يقطنها هذا الشعب أول الأمر . ويتجه الرأى الآن على أن موطن هذا الشعب كان فى منطقة المراعى العظيمة

الواقعة على الشواطىء الشرقية ، والشرقية الشمالية لبحر قزوين ، وربما عاش هناك الأجداد الأولون الذين انحدرت منهم كل الشعوب الهندو — أوربية فيما بعد ، وكانوا يتكلمون بلغة واحدة عندما كانوا لايزالون شعبا واحدا .

وكانوا يجوبون هذه المناطق بحرية مطلقة باحثين عن المراعى الخصبة لقطعانهم بحكم أنقسامهم إلى قبائل متعددة ، إذ كانوا يملكون أنواعا من حيوانات مستأنسة تشمل الماشية والأغنام . واحتل الجواد مكان الصدارة بين حيواناتهم المستأنسة، فلم يستخدم الهندو — أوربيون الخيل فى الركوب فحسب ، بل استخدموها أيضا فى جر عرباتهم ذات العجلات ، واستأنسوا الثور وكان عوناً كبيرا لهم فى جر المحراث لأن بعض هذه القبائل ركن إلى حياة مستقرة وقام بزرع الحبوب وبخاصة الشعير . ولما كان هؤلاء القوم يجهلون الكتابة ، فلم تقم لهم إلا حكومة ونظام إدارى بسيط ، وربما بدأوا فى استخدام النحاس ، فى الفترة التى شرعوا فيها يهاجرون ويرحلون، وأخذت قبائل هذا الشعب تجوب تلك المناطق مستبعدة عن بعضها البعض وتوغلت فى تجوالاتها حتى فقدت الاتصال فيما بينها ، وترتب على ذلك اتساع شقة الخلاف بين الألسن واللهجات وتباينت التقاليد واختلفت العادات ، واصطبغت كل منها بصبغة محلية خاصة . وكان فى استطاعة هذه الجماعات الهندو — أوربية المتباينة أن تتفاهم فى بادىء الامر مع بعضها البعض عند التقائها ، فلما زادت شقة الخلاف بين اللهجات تدريجياً ، جاء اليوم الذى حدث فيه أنه إذا التقت تلك القبائل المشتتة لم تستطع التفاهم مع بعضها . وفى النهاية فقدت هذه القبائل كل معرفة بأصلها أو بمن كانوا يتصلون بهم فى القرابة ، إذ أن معرفة أصل هؤلاء الشعوب وصلتهم بغيرهم أمر لم يكتشف إلا منذ زمن قريب. وكانت النتيجة النهائية لذلك فيما يتعلق باللغة هى مانراه الآن فى لغات أوربا الحديثة . وفى امكاننا أن نتبع أكثر من لفظة واحدة

مشتركة من شعب إلى شعب مبتدئين بانجلترا غرباً ومتجهين صوب الشرق عبر أوربا حتى شمال الهند كما نرى فى هذا الجدول .

الشرق			الغرب		
الهند الشرقية السنسكريتية	الفارسية القديمة وافغانستية	الاغريقية	اللاتينية	الالمانية	الانجليزية
bhrâtar	brâtar	phrâtêr	frâter	bruder	brother
mâtar	mâtar	mêtêr	mâter	mutter	mother
pitar	pitar	pâtêr	pater	vater	father

أما فى الغرب فإن أقدم جماعة معروفة لنا هى الجماعات التى وفدت من الاراضى العشبية الشمالية ودخلت آسيا الصغرى قرابة عام ٢٥٠٠ق.م. وهؤلاء الغزاة الذين أسسوا الامبراطورية الحيثية . واندفعت جماعة أخرى نحو الجنوب والجنوب الغربى واستطاعت أن تخضع السكان الذين كانوا يقطنون المنحنى الغربى لنهر الفرات ، حيث أصبحوا الطبقة الحاكمة لأمة جديدة تدعى أمة الميتانى التى سبق لنا الإشارة إليها ، وإذا بعدنا أكثر من هذا نحو الغرب نجد أن أكثر القبائل الهندو ـ أوربية التى سبقت غيرها فى الهجرة نحو الغرب عبرت الدانوب وتوغلت فى شبه جزيرة البلقان حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م. ولا شك فى أن بعض هؤلاء كانوا قد استقروا بايطاليا فى ذلك العهد . وكانت هذه القبائل الغربية فرعاً من الفروع المختلطة لأجداد الأغريق والرومان ، أو على الأقل كانوا أول من أدخل أقدم اللهجات اليونانية والرومانية (اللاتينية) إلى بلاد الأغريق وإيطاليا . وكان لهؤلاء الناس أثر كبير وخاصة بعد قيامهم بحملاتهم التى شنوها لإخضاع منطقة البحر الأبيض المتوسط . ولكن لندع هؤلاء وشأنهم الآن ولنتابع سرد قصة توغل هؤلاء الهندو ـ أوربيين أولا فى آسيا الصغرى (الأناضول) ثم فى تقدمهم نحو الطرف الشرقى للهلال الخصيب.

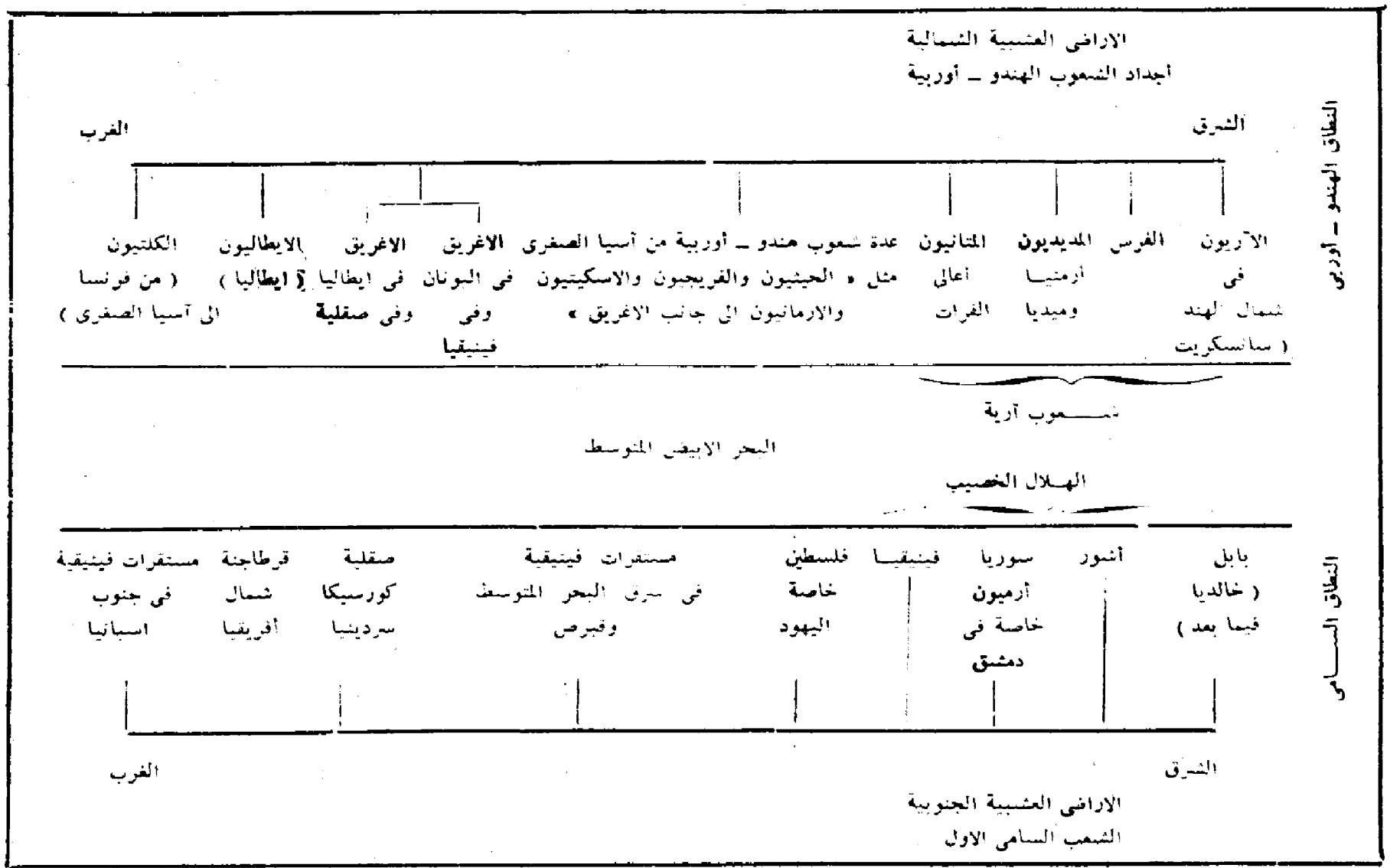

شكل : ٥٢ ـ جدول يبين النطاقين السامى والهندو ـ اوربى

الحيثيون

عندما ينظر الإنسان إلى منطقة الجبال المرتفعة فى غرب آسيا ، يحس بأن خلف هذا الستار المنيع من الجبال بل وبينها نفسها ، حدثت هجرات وحركات إنسانية هامة . وهذا أمر حقيق فقد كانت هذه المنطقة مسرحا لحوادث هامة مدى وقت طويل ، وسنتحدث الآن عن دورها الذى قامت به .

تشمل هذه المنطقة المرتفعة نطاقا شاسعا من الأراضى يمتد من البحر الإيجى غربا متجها صوب الشرق محاذياً للجانب الشمالى للهلال الخصيب ثم يتوغل شرقا بين بحر قزوين والخليج الفارسى ، حتى الهضبة الإيرانية فى الشرق . وتكفينا نظرة سريعة على خرائط هذه المنطقة لنرينا أن هذه المنطقة كانت تشمل من الغرب إلى الشرق الأناضول (أو آسيا الصغرى الخيتية) وأرمينيا وميديا وإيران وفى هذه المنطقة الشاسعة تقدمت الشعوب النيوليتية حتى وصلت إلى حضارة عصر البرونز ، وكانت عناصر حضارتها متشابهة وتتصل ببعضها البعض . فإن بعض الأوانى الفخارية الجميلة التى عثر عليها حديثاً فى إيران تشبه شبها تاما مثيلاتها من الأوانى الفخارية التى اكتشفت فى الأناضول أى فى الطرف الآخر من المنطقة .

وليس فى مقدورنا أن نجد لهذه الحضارة المتوغلة فى الإتساع خاصية تعرف بها ، بيد أنه فى استطاعتنا أن نطلق عليها إسما جغرافيا ، وأن نسميها « حضارة المنطقة المرتفعة » لأن الاعتقاد السائد هو أن هذه الحضارة نشأت فى الأصل فى الهضبة الإيرانية ، ولقد اكتشفت كميات من أوانيها الفخارية ومصنوعاتها البرونزية فى غرب إيران وفى ميديا ، وتتصل بهذه الحضارة حضارة اخرى أعرق منها فى القدم وهى حضارة بلاد عيلام فى أول عصورها . أما فيما يتعلق بالشعوب التى نمت بينها حضارة الأرض المرتفعة ، وأصل هذه الشعوب ، فليس لدينا عنها من المعلومات

إلا النذر اليسير . ولا شك فى أنها لم تكن جميعا من أصل واحد . ومن الجائز جدا أنهم لم يكونوا من الهندو أوربيين فى بادىء الأمر . وقد لعبت الشعوب التى كانت تقطن الأناضول دورا هاما فى نمو حضارة الأرض المرتفعة ، وتلك هى الشعوب الحيثية التى كانت تستوطن آسيا الصغرى بسبب ما كان فى جبالهم من معادن .

كان الجزء الأكبر من آسيا الصغرى أو الأناضول [1] تحت سيادة الحيثيين ، وهى شبه جزيرة شاسعة تتراوح بين ستمائة وسبعمائة ميل فى الطول ، وبين ثلاثة وأربعمائة ميل فى العرض. أنها تقرب من ولاية تكساس. وفى وسطها منطقة مرتفعة مستوية السطح تكاد تشبه الصحراء . وحول هذه المنطقة المرتفعة فى الوسط الشبيهة بالهضبة ، نرى سلسلة من الجبال تكتنف الجزء الأكبر منها وتصل إلى البحر ، وعلى جانبى سلاسل الجبال توجد وديان وسهول خصبة تدر محاصيل طائلة . وتغطى الغابات منحدرات الجبال وخاصة تلك التى تواجه البحر الأسود . أما الشواطىء الشمالية لآسيا الصغرى شرقى نهر الهاليس Halys فإنها مرتفعات جبلية غنية بالمعادن وخاصة الحديد . ولهذا كان الحيثيون أقدم الشعوب التى نشرت استعمال الحديد عندما أخذ يحل مكان البرونز فى بلاد البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى .

ولعله من الأصوب أن نطلق على سكان الطرف الغربى لمنطقة « الأرض المرتفعة » فى قارة آسيا فى العصر الذى سبق غزوات الهندو ـ أوربيين ، اسم « الأناضوليين القدماء » ، إذ لا شك فى أن هؤلاء القوم كانوا يقطنون هذه المنطقة

---

١ ـ اناتوليا (أو الاناضول) كلمة اغريقيه ترادف الكلمه اللاتينيه Orients اى الشرق ولكن تداولها قد حدد معناها لانها تستعمل للدلاله فقط على آسيا الصغرى حتى الفرات الاعلى من ناحية الشرق . وقد اثبتت اخر الابحاث الاثرية أن الشعوب الاولى التى سكنت فى الاناضول ليس هم أجداد الحيثيين المعروفين فى التاريخ . اذ أن الحيثيين وفدوا بعد ذلك . ولهذا يمكننا أن نسمى السكان الاوائل « الاناضوليون القدماء » وهو اصطلاح لايدل فى الواقع على أصلهم أو جنسيتهم .

عندما بلغ تقدمهم الإقتصادى حد المرحلة النيوليتية فقط . وكان من عادة هؤلاء الأناضوليين القدماء أن يهاجروا، فاتجه بعضهم إلى أطراف آسيا الصغرى من الناحية الغربية ، وهاجروا منها إلى كريت ،ورحل بعضهم فى بلاد اليونان نفسها وكان ذلك فى العصر الذى سبق عصر معرفتهم للمعادن . ونحن نذكر كيف هاجر بعضهم من الطرف الشرقى لآسيا الصغرى إلى فلسطين فى جماعات كبيرة فأثروا فى سكانها وأصبحت معالم وجوههم وخاصة تلك الأنف المحدبة هى السائدة فى منطقة فلسطين بأسرها .

ونحن لا نعرف إلا القليل عن الأناضوليين القدماء . وقد يستلزم الأمر عشرات من السنين فى التنقيب والبحث لجمع شتات الحقائق لمعرفة قدر كاف عن حياة هذا الشعب وتاريخه . وقد عثر على عمق ثمانين قدما تحت أحد الأكوام الخيتية المعروف باسم تل اليشار (Alishar) على منزل من العصر النيوليتى فعرفنا منه الشىء اليسير عن بعض ما يتصل بحياتهم قبيل فجر « عصر المعادن » .

أما الهندو ـ أوروبيون فإنهم جاءوا على الأرجح من الشمال ومن الشرق من ناحية جبال القوقاز حوالى عام ٢٥٠٠ ق . م وكان هذا أول ظهورهم على صفحات التاريخ ، وقد دلت الإكتشافات الحديثة على أن هؤلاء الهندو ـ أوربيين الذين أتوا إلى الأناضول هم الذين نعرفهم باسم الحيثيين الذين كانوا فى طليعة التحركات الهندو أوربية فى غرب آسيا التى انتهت أخيرا باحتلال الهلال الخصيب والسيطرة على الشرق الأدنى بأسره على أيدى الميديين والفرس .

وأدخل الهندو ـ أوربيون الحصان المستأنس إلى آسيا الصغرى ومن ثم إلى جميع بلاد الهلال الخصيب، ولم يتسبب عن هذا الغزو انقراض الأناضوليين القدماء بل خضوعهم لحكم الغزاة الجدد الذين أصبحوا الطبقة الحاكمة كما حدث فى بلاد ميتانى . أما فيما يتعلق باللغة فقد نشأت لغة مختلطة ، وتضمنت هذه اللغة المختلطة

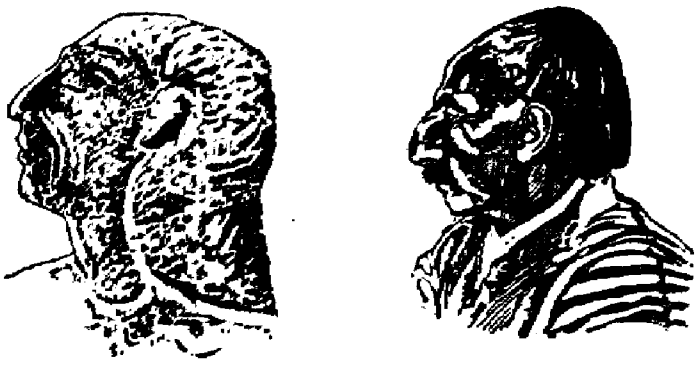

شكل : ٥٣ ــ حيثى قديم وسليله أرمنى حديث

الى اليسار رأس حيثى قديم كما حفرها مثال مصرى على حائط معبد فى طيبة بمصر منذ ثلاثه آلاف سنة . وهى تشبه الى حد كبير وجوه الارمن الذين مازالوا يعيشون فى القطر الحيثى كما ترى فى الرسم الذى على اليمين

الجديدة ألفاظا أناضولية قديمة إلى جانب الألفاظ الهندو ـ أوربية . كما اختلطت الاصطلاحات النحوية، وظلت هذه اللغة المختلطة مدى ألف سنة إحدى اللغات الهامة فى غرب آسيا . وسنسمى هذه اللغة المختلطة « اللغة الحيثية » لتميزها عن لغة عصر ما قبل مجىء الهندو ـ أوربيين . وكان الحيثيون عند غزوهم للأناضول قوما لا مدنية لهم ، ولم تنشأ الحضارة الحيثية إلا بتأثير من حضارات الهلال الخصيب . فنحن نذكر كيف كانت القوافل البابلية تسير محملة بالتجارة منذ عصر بعيد إلى آسيا الصغرى ، ونذكر أيضا كيف استقر بعض التجار الأشوريين هناك . وكان وجود هؤلاء التجار سببا فى تعلم الحيثيين أساليب المعاملات التجارية ، ثم تعلموا بعد ذلك قراءة الرقم التى كان يسطر عليها التجار قوائم البضائع وأصنافها والمراسلات التجارية التى كان يبعث بها التجار الأشوريون مع تلك السلع . وقد عثر على كميات هائلة من هذه الرقم فى المدن الحيثية ، كما عثر فى الحفائر منذ وقت غير بعيد على كثير من الرقم احتوت على معاجم تحوى صفحاتها ثلاثة أعمدة من الكلمات : الأول سومرى ، والثانى أشورى بابلى، والثالث حيثى . وهكذا تعلم الحيثيون كتابة الكلمات الحيثية بالكتابة المسمارية . وأصبحت الرقم شائعة الإستعمال بين الحيثيين ، ومن

المرجح أن استعمال هذه الرقم [١] قد وصل إلى كريت عن طريق هؤلاء الحيثيين ، وتقدم هؤلاء الحيثيون تقدما كبيراً فى حضارتهم بعد أن تعلموا الكتابة ، ولم يأت عام ٢٠٠٠ ق . م . وإلا وأصبحوا شعباً على جانب كبير من الحضارة والرقى . وصارت لهم القدرة الكاملة على منافسة الشعوب العظيمة فى الشرق الادنى. ونهضوا مرتين لينافسوا مصر وآشور ، وسنطلق على أولى هاتين الفترتين العظيمتين الامبراطورية الحيثية الاولى (من حوالى عام ١٩٠٠ إلى ١٦٥٠ ق . م) وعلى الثانية الامبراطورية الحيثية الثانية (من حوالى عام ١٤٠٠ إلى عام ١٢٠٠ ق . م)

وأقدم ملك حيثى وصل إلينا اسمه هو « أنيتا (Anitta) ، الذى قام فى مدينة كوسار Kussar فى المنطقة الشرقية لآسيا الصغرى. ولعل ذلك كان عام ٢٠٠٠ ق . م ولا نعرف على وجه التحديد المنطقة التى قامت فيها تلك المدينة . ومن الواضح الجلى أن الحيثيين لم يكونوا إذ ذاك أمة واحدة ، بل كونوا عدة ممالك مختلفة كانت مثل الممالك الأفريقية فى صراع دائم مع بعضها البعض . ولكن القيادة العليا لهذه الممالك آلت أخيراً إلى مملكة الخيتى [٢] Hatti التى كانت تقع داخل المنحنى الكبير لنهر الهاليس فى وسط آسيا الصغرى وعاصمتها تعرف بحاتوساس (Hattusas) . وقد تمكن ملوك ختى Hatti من أن يخضعوا الممالك المجاورة وكونوا بذلك أمبراطورية صغيرة وفى أوائل القرن الثامن عشر قبل الميلاد تولى الملك فى حاتوساس ملك قدير هو الملك « مورسيل » (Mursil) ، أول الملوك الذين يحملون هذا الاسم . وفى الأيام التى أخذ فيها خلفاء حمورابى Hammurabi يضعفون كان مورسيل الأول هو الذى تقدم

---

١ — حوت الرقم الحيثية كثيرا من علامات الكلمات البابلية مما مكن العالم التشكوسلوفاكى « بدرش هروزنى » Bedřich Hrozný — بعد الحرب العالمية الاولى من حل رموز اللغة الحيثية المكتوبة بالطريقة المسمارية وزادت معلوماتنا عن الحيثيين بعد ذلك زيادة مطردة . وقد أثبت العالم الالمانى أميل فورر Emil Forrer أن الرقم التى اكتشفت فى عاصمة الحيثيين تحوى أمثلة من سبع لغات الى جانب اللغة الحيثية

٢ — « الختى » هى أصل كلمة الحيثى والحيثيين التى وردت فى التوراة

مع نهر الفرات واستولى على بابل وأطاح بآخر فرد من أسرة حامورابى . بيد أن خلفاء مورسيل لم يكونوا مثله فى المقدرة فلم تلبث الأمبراطورية الحيثية الأولى أن سقطت قبل أن تطصدم بمصر .

وقامت الأمبراطورية الحيتية الثانية قرابة عام ١٤٠٠ ق . م . واستمرت لمدة قرنين من الزمان صاحبة السلطان والنفوذ فى آســـيا الغربية . وكان مؤسس هذه الأمبراطورية هو « سبّيلوليوما » Suppilulyma أكفأ قائد عرفته آسيا الغربية منذ حملات تحتمس الثالث ، تلك الحملات التى بدأت فى فترة تقل عن القرن قبل بدء حملات الحيتيين الهائلة . فلما تقدم سبّيلوليوما فى سوريا وعلى شواطىء الفرات بعد عام ١٤٠٠ ق . م أخذ يقضى على نتائج الانتصارات التى أحرزها سلفه المصرى فى تلك البلاد . ولم يكن هناك تحوتمس آخر ليرد عدوان هذا القائد الحيثى القوى . بل كانت هناك ثورة الملك أخناتون التى أضعفت من روح المصريين الحربية وأسلمتهم لليأس فلم يكن فى مقدورهم عمل شىء إلا أن يرقبوا تقدم الحيثيين فى سوريا واخضاعهم لها ، ثم ضمها إلى الأمبراطورية الحيثية . وعبر سبّيلوليوما الفرات بعد ذلك ودحر قوات الميتانى ، وهكذا أصبح الفاتح الحيثى مسيطراً على جزء كبير من آسيا الغربية . وهناك رقيم له أهمية خاصة عثر عليه مع الرقم التى اكتشفت فى العاصمة الحيتية « حاتوساس » وهو رسالة جديرة بالاعتبار كتبت بالمسمارية موجهة إلى الأمبراطور الحيتى . من إحدى ملكات مصر[1] وهى إما كانت أرملة إخناتون أو إبنته الثالثة التى تزوجت بتوت عنخ أمون ،

وهذه الرسالة دليل قاطع على سطوة وقوة الفاتحين الحيثيين لأن الملكة المصرية تقول له فى رسالتها ، أن ليس لها ولد ليخلف أباه المتوفى على العرش وترجو الحاكم

---

١ — يتجه أكثر الباحثين فى السنوات الأخيرة إلى الإعتقاد بأن تلك الملكة هى نفرتيتى ، وأنها لجأت ذات يوم إلى الحيثيين عندما رأت بوادر انهيار أعدائها وانهيار حركة الدينية . (المترجم)

الحيثى أن يرسل إليها أحد أبنائه زوجا لها وملكا على مصر .

ولو تم هذا الزواج لأصبحت للأسرة الملكية الحيثية حينئذ السلطة العليا على الأمبراطوريتين المصرية والحيثية ، ولأصبحت هاتان الأمبراطوريتان مجتمعتين أعظم أمبراطورية عرفها التاريخ . بيد أن الشك ساور الأمبراطور الحيثى فى أمر هذا العرض الغريب الذى تقدمت به الملكة المصرية . وأراد أن يستوثق من الأمر قبل أن يبعث بابنه إلى مصر . ولكن عندما استقر رأيه على إرسال أحد أبنائه كان الوقت متأخراً جداً وفشل كل شيء . فعندما كان الأمير الحيثى الشاب فى طريقه إلى مصر كان أعداء أسرة اخناتون الأقوياء قد أطاحوا بالملكة الأرملة ، وألقوا القبض عليه وقتلوه . وهكذا خسر سبيلوليوما فرصة استيلائه على مصر دون حرب أو بذل أى مجهود .

وكان لديه أبناء آخرون . فتوجهم ملوكا على أهم البلاد فى سوريا وبهذا جعل الطرف الشمالى للأمبراطورية المصرية جزءاً من الامبراطورية الحيثية ، وفى الجنوب امتدت أمبراطوريته حتى فلسطين ، التى ظلت تحت حكم مصر . أما فى الغرب فإنه عبر الفرات وامتدت حدوده حتى شملت جزءاً عظيما من دولة الميتانى ، كما امتدت حدوده الشرقية فى وقت من الأوقات حتى وصلت إلى أشور . أما فى الشمال والغرب فقد شملت الأمبراطورية الحيثية الثانية معظم آسيا الصغرى . وأحست مدينة طروادة التجارية التى كانت تتمتع بقسط كبير من السطوة بضغط قوة الحيثيين ، إذا لم تكن قد أصبحت تحت السيادة الحيثية ودانت بالولاء لأمبراطورها .

وهكذا باتت الامبراطوريتان المصرية والحيثية ندتين متنافستين فى سبيل الوصول إلى مركز الصدارة فى العالم ، وكانت منافسة عنيفة قوية بينهم استلزمت حرباً دامت أكثر من ربع قرن من الزمان بين أحفاد سبيلوليوما وبين الفراعنة سيتى الاول ورمسيس الثانى . وعندما كانت الحرب محتدمة بين الفريقين وخاصـــة بعد عام

١٣٠٠ ق . م ، بدأت دولة أشور فى نهضتها فسبب ذلك مضايقة للحيثيين . وأخذوا يعقدون المعاهدات بينهم وبين الملوك الموالين لهم فى سوريا، ينص فيها هؤلاء الملوك على أنهم يعتبرون الأشوريين أعداء لهم يعاملونهم معاملة الأعداء ، ومن بين الرقم التى اكتشفت فى حاتوساس توجد نسخة من رسالة جديرة بالاهتمام يحث فيها الأشوريون الملك الشاب فى بابل ليهاجم أشور من الخلف .

وعندما نشبت الخلافات بين الحيثيين أنفسهم عقد حفيد سبيلوليوما حاتوسيل Haltusil معاهدة صلح مع رمسيس الثانى وهكذا انتهى الصراع بين هاتين القوتين وقامت علاقات وثيقة بين الاسرتين المالكتين ، وتبادل ملكات مصر وملكات خيتا رسائل التهنئة على المعاهدة السلمية الجديدة ، وهذه الرسائل مكتوبة على رقم ويرجع تاريخها إلى حوالى عام ١٢٧٠ ق . م ، وعثر عليها الباحثون بين السجلات والمدونات الملكية التى استخرجت من خرائب العاصمة حاتوساس (بوغازكوى). وبعث الامبراطور الحيثى بعد ذلك بابنته إلى مصر لتصبح زوجا لرمسيس الثانى . ورسم نحاتو رمسيس مناظر تمثل وصول العروس الحيثية على المعابد المصرية . بل إن بعض هذه المناظر رسم على أحد معابد هذا الملك (معبد أبو سمبل) على مقربة من الشلال الثانى .

لقد وصلت حضارة الامبراطورية الحيثية الثانية إلى مستوى عال من الرقى ، وكان لها أثر كبير فيما حولها ولنتحدث عن أهم ما حققته .

نشأت الدولة الحيثية عن مجموعة كبيرة من الدويلات الضعيفة التى أخضعتها دويلة (ختى) ، وكان على كل دويلة من هذه الدويلات أن تقدم لجيش الامبراطور بعض المشاة وراكبى العربات فتكونت قوة الامبراطور الحربية من هذا الجيش المختلط بالإضافة إلى الجنود الذين يجمعهم هو نفسه من مملكته . أما الحكومة فإنها كانت تطبق مجموعة حكيمة من القوانين وكان الملك نفسه مقيداً بنصوصها ، ومما

يدل على تقدم الحضارة الحيثية أنه بعد توقيع معاهدة الصلح مع مصر رأى أحد ملوك الحيثيين (ربما كان الملك حاتوسل) أن يدخل تعديلات جديدة على هذه القوانين جعلتها أكثر رحمة وإنسانيـــة عما كانت عليه من قبل ، بقى من هذه اللائحة حوالى مائتى بند وهى جزء غير قليل من هذا القانون وهى مكتوبة على رقم وكثيراً مايشير فيها الملك إلى العقوبات القديمة التى كانت أكثر عنفاً وشـــدة ، وما أدخله عليها فصارت أكثر رحمة وأخف وطأة . كانت عقوبة سرقة رأس من الغنم تبلغ غرامة قدرها ثلاثون رأسا . أما الآن طبقاً للقانون الجديد فقد خفضت هذه الغرامة إلى خمسة عشر رأساً فقط . ولم تطبق عقوبة الإعدام فى جرائم القتل ولا شك أن هذا القانون الحيثى كان أكثر عطفا ورحمة من القانون الأشورى . وكان أعظم شفقة وإنسانية من قوانين بابل أو مصر . وهذا الاحترام الذى أظهره الملوك الحيثيون نحو القانون أمر جدير بالإعجاب ، ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن سبيلوليوما قد اعترف فى إحدى كتاباته بأن غزوه للأمبراطورية المصرية فى سوريا كان غزواً غير مشروع ، وأن الوباء الذى انتشر بين شعبه بعد ذلك كان جزاء عدلا من الآلهة عما أتاه .

ولا ريب فى أن هذه العقلية المستنيرة التى قادت خطى الملوك الحيثيين كان لها أثر كبير فى التقدم الملحوظ الذى حققه الحيثيون فى ميادين أخرى غير ميادين السياسة فقد بنى المعماريون الحيثيون أقدم مبانى هامة من الحجر فى آسيا . كما أن مدينة حاتوساس ذات الأسوار القوية المنيعة كانت فى الواقع أول مدينة كبيرة وجدت فى تلك القارة إذ فاقت مدينة بابل التى كانت معاصرة لها فى الاتساع ، أما مدينة نينوى التى أقامها الأباطرة الأشوريون فقد كان أمامها قرابة ستة قرون أوسبعة حتى تظهر فى الوجود .

وخير ما تظهر فيه عبقرية المهندسين الحيثيين هو ذلك الطراز المعمارى الجديد الذى أدخلوه على واجهة قصر الملك . وكانت هذه تتكون من ايوان مسقوف فى

الوسط . يحمل سقفه عمودان . وعلى كل جانب من الايوان برج مربع . وأطلقوا على هذا المبنى اسم « المنزل ذو البرجين » وقد اقتبس الملوك الأشوريون هذا الديوان وأدخلوه فى عمارة قصورهم . ثم وصل أخيراً إلى الفرس .

وعرف المهندسون الحيثيون أهمية النحت فى تزيين مبانيهم . فأقاموا على جانبى المدخل الرئيسى فى قصر الملك تمثالين من الحجر لأسدين حارسين على جانب كبير من الدقة والجمال . وفكرة تماثيل أوصور الحيوانات الحارسة مأخوذة عن المصريين الذين كانوا يصنعون تماثيل أبى الهول الذى اقتبسه الحيثيون عن المصريين أيضاً .

وزينوا الجدران أيضاً بعمل افريز سفلى للحائط يتكون من قطع كبيرة مستوية من الحجر تنحت فيها صور بارزة . نقل الحيثيون هذه العادة إلى أشور . كما نقل الحيثيون أنفسهم رموزاً ذات قيم فنية ودينية عن مصر وبابل . فنجد مثلا بين الصور البارزة الحيثية قرص الشمس المجنح المصرى كما نجد رمز البابليين القديم وهو النسر الذى يفرد جناحيه ورأسه على هيئة رأس أسد وفى بعض الأحيان له رأسان أما قرص الشمس فقد انتقل شرقاً إلى الأشوريين والفرس ، وأما النسر فقد عبر البحر الأيجى واتجه صوب الغرب إلى أوربا فيما بعد ومنها إلى الولايات المتحدة حيث أصبح النسر الأمريكى .

وتعتبر رقم الألواح الحيثيين أقدم قصص تاريخية تميزت بأسلوب أدبى ومكتوبة نثرا . فقد كان الكتاب الحيثيون يولون الأدب عظيم اهتمامهم . وأدى بهم هذا الشغف إلى حب استنساخ المؤلفات البابلية القديمة وإقبالهم عليها . لقد كانت قصة البطل البابلى جلجمش (Gilgamesh) ذائعة معروفة فى جميع أنحاء آسيا الصغرى . وإلى جانب المؤلفات الدينية كان هناك أيضاً بعض أبحاث خاصة مثل ذلك البحث فى تربية الخيل الذى اقتبسه الحيثيون عن الميتانيين . وعلى عكس الكتاب الذين ظهروا فى الحضارات العظيمة الأخرى حرص الكتاب الحيثيون

على أن يعرفهم الناس بأنهم مؤلفون فأضافوا أسماءهم إلى مؤلفاتهم . فكانوا بذلك أقدم المؤلفين الذين شعروا بكيانهم كما يفعل الآن الكتاب المحدثون .

شكل : ٥٤ ـ أمير حيثى يصطاد أيلا

يقف الامير الحيثى فى العربة والى جانبه سائقها ، ويرمى الامير بسهمه ذكر الايل بينما يجرى كلب الصيد الى جانب الجوادين . والمنظر منقوش على حجر وهو بوجه عام مثل لابأس به للفن الحيثى . وفى أعلى الصورة كتابة باللغة الهيروغليفية الحيثية

وعندما بدأ الأباطرة الحيثيون فى تشييد المبانى الحجرية شعروا بحاجتهم الماسة إلى خلق طراز للكتابة يلائم الآثار الضخمة الهائلة لتزيين المبانى بالكتابات التاريخية كما فعل المصريون ، ولهذا ابتدعوا طريقة فى الكتابة أساسها استعمال الصور كعلامات ، ولا زالت بعض هذه الكتابات التاريخية التى كتبوها بهذه العلامات الهيروغليفية الجديدة نراها على واجهة الصخور وعلى الجدران القائمة يشاهدها المسافرون فى منطقة متسعة من آسيا الصغرى من البحر الأيجى إلى الفرات . ورغم أن هذه الكتابات الهيروغليفية التى كتبها الحيثيون لم تحل حتى الآن

حلا تاماً فإن الباحثين تقدموا فى ذلك تقدماً يستحق الإعجاب (١)

وتوحى إلينا المدونات الحيثية باحتمال وجود عناصر مصرية وبابلية فى الديانة الحيثية . وعبد الحيثيون مجموعتين عظيمتين من الآلهة : آلهة الأرض وآلهة السماء فإلى جانب « الأرض الأم » كان لديهم أيضاً إله الشمس التى آمن بها الحيثيون إيماناً صادقاً . وكان هذا الإله الأخير على جانب كبير من الأهمية جعلت الأمبراطور الحيثى يسمى نفسه « الشمس »

شكل : ٥٥ ــ حلية بارزة من الفضة عليها نقش مسمارى ونص هيروغليفى حيثى .

كتب صانع هذا الطبق النص الآتى حول حافته باللغة الحيثية مكتوبا بالمسمارية «تاركوندیموس ملك دولة مرا » . وعلى جانبى رسم الملك نرى نقشين بالعلامات الهيروغليفية الحيثية . ويرى الدكتور اجنيس جلب Dr. Ignace Gelb من علماء المعهد الشرقى ان لهذا النقش أهمية عظمى لان ترجمه النص الهيروغليفى هى : «تاركوندیموس ملك دولة مرا» وبعبارة أخرى فان نقوش هذه الحلية الفضية المستديرة ليست الا نصا حيثيا واحدا مكتوبا بلغتين أى أنه مماثل لحجر رشيد فى مصر ونقش داريوس فى بهستون . فاذا حددنا قراءة بعض العلامات الهيروغليفية فانه يصبح من الميسور الانتفاع والاستعانة بها فى قراءة النصوص الاخرى ويمثل هذه الطريقة البطيئة المضنيه يجتهد العلماء فى تحديد نطق أو معنى بضع علامات قليلة الى أن يأتى اليوم الذى يتمكنون فيه من حل جميع ألغاز الكتابة الحيثية الهيروغليفية

١ ــ يختلف الباحثون فى تحديد الزمن الذى ظهرت فيه الكتابة الحيثية الهيروغليفية واو ان غالبيتهم يميلون الى الاعتقاد بانها لم تظهر حتى نهاية الامبراطورية الحيثية الثانية ــ وعلى اية حال هناك مايمكن ان يثبت ان ظهورها سبق قيام الامبراطورية الثانية .

ووصلت الحضارة الحيثية إلى ذروة ازدهارها فى الوقت الذى كانت فيه الأمبراطورية المصرية فى أوج عظمتها ، وفى الفترة نفسها التى كانت فيها « كنوسوس Cnossus » فى جزيرة كريت فى عصرها المجيد . ويوم كانت طروادة فى غرب آسيا الصغرى قد بنت (مدينتها السادسة) العظيمة . ولما كانت الحضارة الحيتية تقع بين الحضارتين العظيمتين حضارة جنوب أوربا وحضارة الشرق الأدنى ، فقد كانت همزة الوصل بين الطرفين وكان أثرها على الشعوب الإيجية تأثيرا مستمرا . فقد تلقى الأغريق عن العالم الحيتى مبادىء الفن . وأصول المعمار كما اقتبسوا منه بعض العقائد الدينية .

وهناك أمر آخر له دلالته الكبرى وهو أن الحيثيين ، كانوا أصحاب الفضل فى نشر استعمال الحديد فى جميع أنحاء الشرق الأدنى . ويجب علينا ألا نخطىء الفهم ونعتقد أن مهمة الحيثيين اقتصرت على نقل الحضارات بين الأمم فإننا رأينا كيف ساهم الحيثيون بنصيب وافر فى حضارات الشرق الأدنى القديمة . وقدموا له كثيراً من المبتكرات الجديرة بالاعتبار . واقتبس الأشوريون كثيراً منها ثم انتقل منهم إلى الفرس ، وهم شعب من الجنس الهندو أوربى الذى سكن فى غرب آسيا . ولنبدأ حديثنا عنهم الآن .

الشعوب الآرية والنبى الإيرانى

« زرادشت Zoroaster »

أجمع الباحثون على أن القبائل الشرقية من النطاق الهندو ـ أوربى كانت ترعى قطعانها فى منطقة المراعى العظيمة فى شرق بحر قزوين قرابة عام ٢٠٠٠ ق . م بعد أن تركت موطنها الأصلى ، وفى هذا الوطن الجديد كونوا شعبا يطلق عليه بحق اسم الشعب الآرى (١) ، وجعلوا من هذه المنطقة وطنا لهم لفترة من الزمن .

ولم يعرف الآريون الكتابة ، ولم يتركوا آثارا لهم . ورغم هذا فإن معتقدات أحفادهم ترينا أن القبائل الآرية كان لها فى ذلك الحين ديانة رفيعة المستوى لخصت كل السلوك الانسانى فى أنه « أفكار طيبة ، أعمال طيبة » ولعبت النار دورا هاما فى هذه الديانة ، وقد كان لديهم جماعة من الكهنة أطلقوا عليها اسم « مشعلى النار ».

وعندما تشتت شمل الآريين . ولعل ذلك كان حوالى عام ١٨٠٠ ق . م انقسموا إلى مجموعتين فاتجهت القبائل الشرقية نحو الجنوب الشرقى واستقرت آخر الأمر فى الهند . وفى كتبهم المقدسة المسماة بالفيدا Vedas والتى كتبت باللغة السنسكريتية ، يتردد صدى أيام الوحدة الآرية ، كما احتوت هذه الكتب على كثير

---

١ ـ من المحتمل جدا أن الشعب الهندو ـ أوربى الاول لم يكن له اسم يطلق على جميع قبائله ، ويطلق كلمة « آرى » فى بعض الاحيان تجاوزا على الشعب الاول هذا .

ولكن ليس لهذا الاستعمال اساس من الصحة . فانه صفة آرى (التى جاءت عنها فيما بعد لفظة ايران ، وايرانى) تدل على جماعة من القبائل ماهم فى الواقع الا جزء من الشعب الاول ، انفصل عن ذلك الشعب واستوطن المنطقة التى تقع شرق بحر قزوين مباشرة ، ويجدر بنا أن نذكر عندما نسمع لفظة آرى يطلقها بعض الناس على الشعوب الاوربية التى من اصل هندو ـ اوربى أو يقول بعضهم أننا من سلالة آرية يجب أن نذكر أن هذا التعبير خطأ من الناحية التاريخية رغم كثرة استعماله . وذلك لان الآريين ينتمون الى القبائل الشرقية من الشعب الهندو ـ أوربى الاول ، أما الاوربيون والامريكيون فينتمون الى القبائل الغربية من هذا الشعب ، اى أن الآريين هم أبناء عمومة الاوربيين لا أجدادهم

من الاشارات إلى الوطن الآرى القديم شرقى بحر قزوين .

واحتفظت قبائل الجماعة الثانية بلفظة « آرى » فى كلمة إيران ولذا نسميهم الآن إيرانيين . وهجر هؤلاء أيضا الوطن الآرى واتجهوا نحو الغرب والجنوب الغربى خلال الجبال التى تمد الهلال الخصيب ، وكان حكام الميتانيين قبيلة من مجموعة تلك القبائل الايرانية . وإذا توغلنا شرقا نجد جماعتين من الايرانيين[1] على جانب كبير من القوة . هما الميديون والفرس ، الذين قدر لهم أن يخضعوا الهلال الخصيب وأن يؤسسوا آخر امبراطورية شرقية عظيمة فى غرب آسيا .

وقد رأينا قبل الآن كيف كانت الشعوب التى تقطن الجبال المحيطة بالطرف الشرقى للهلال الخصيب خطرا دائما منذ أقدم العصور يهدد سلامة سكان بابل وآشور ، ويذهب بطمأنينتهم . وكانت مملكتا عيلام ، وأورارتو Urarto بوجه خاص عدوتين خطرتين لآشور مما حدا بالأباطرة الأشوريين الى شن غزوات متوالية لنهب هذه البلاد حتى تمكنوا أخيراً من كسر شوكتها والقضاء عليها . ولعل آشور ارتكبت خطأ جسيما بهذا العمل لأنه ربما أمكن لهذه البلاد بما كان لديها من القوة ما يجعلها تصد تقدم الهندو ـ أوربيين وأن تكونا دولة تحمى حدود الأشوريين والكلدانيين .

ولما كانت الشعوب التى على الحدود قد أضعفتها غزوات الاشوريين فلم يلق الميديون أى عناء أو مقاومة . واستطاعوا حوالى عام ٧٠٠ ق . م تقريبا تأسيس امبراطورية إيرانية قوية فى الجبال التى تقع شرقى نهر دجلة ، وأخيراً امتدت هذه الامبراطورية من الخليج الفارسى حيث شملت بلاد فارس، وتتجه صوب الشمال الغربى مع سلسلة الجبال حتى منطقة البحر الأسود وبذلك أصبحت واجهة الجناح

---

١ ـ لقد أطلق اسمهم على الهضبة الايرانية العظيمة بأسرها . تلك التى تمتد من جبال زاجروس فى الغرب حتى نهر الهند شرقا ولقد عرفت هذه المنطقة جميعها لدى الاغريق والرومان باسم أريانا Ariana تلك التسمية (مثل ايران) المشتقة بالطبع من لفظة آرى

الشرقى للهندو ـ أوربيين موازية إلى حد ما لنهر دجلة فى هـذا المـكان ولـكنهم واصلوا تقدمهم وامتد هذا الجناح إلى مسافات أبعد فيما بعد ، وأسس الميديون

شكل : ٥٦ ـ رسم ملون ، يحتمل أن يكون لزرادشت

عثر على هذا الرسم الملون فى معبد للاله « متراس » فى دورا على الفرات وقـد كشفت عن هذا المعبد بعثة مشتركه من جامعة ييل والاكاديمية الفرنسيه للنقوش والفنون الجميلة برئاسة الاستاذ كلارك هوبكنز Professor Clark Hopkins

(منشور هنا باذن من قاعة الفنون الجميلة بجامعة ييل)

مدينة إكباتانا Ecbatana وجعلوها عاصمة لهم . وتقع هذه المدينة فى مواجهة الممر الذى يخترق جبال زجروس مؤديا إلى الهلال الخصيب مباشرة ، وإلى مدينة بابل رأسا .

وبعد مرور قرن من الزمان ، توجس نبوخذ نصر وخلفاؤه فى بابل خيفة من الميديين الأقوياء ، عائدين بأذهانهم دون شك إلى عام ٦١٢ ق . م . حين سارع

هؤلاء الميديون إلى الاتحاد مع غيرهم واشتركوا فى مهاجمة نينوى وكان الكلدانيون على نهر الفرات يمثلون زعامة الدم السامى الذى قدم أهله من المراعى الجنوبية . ولكن هذه الزعامة كان على وشك التخلى عن مكانها لزعامة الدم الهندو ـ أوربى القادم من المراعى الشمالية . ونحن اذ نشاهد الكلدانيين يفسحون الطريق أمام الميديين والفرس ، يجدر بنا أن نذكر أننا نشهد انقلابا خطيرا بين الأجناس المختلفة وأن هؤلاء الايرانيين الذين على وشك السيطرة على الشرق كانوا من ابناء عمومة الأوربيين لأن كلاهما من نسل الرعاة الرحل أو الشعب الهندو ـ أوربى الأول، الذى عاش يوما ما فى المراعى النائية فى وسط آسيا ، منذ خمسة آلاف سنة مضت على وجه التقريب .

وكان لجميع هؤلاء الايرانيين ديانة جميلة آلت اليهم منذ العهود الآرية القديمة التى سبقت هجرتهم . وبعد جيل من سقوط نينوى ـ وربما كان ذلك قرابة عام ٥٧٠ ق . م ـ ولد نبى ميدى يدعى زرادشت [1] وشرع هذا النبى فى تأمل حياة الناس بغية الوصول إلى ديانة جديدة تلائم حياتهم وتسد حاجتهم ، تأمل زرادشت الصراع المستمر بين الخير والشر . هذا الصراع الذى كان يراه حوله أينما سار والذى رآه ممثلا فى ديانة الشعب الميدى وفى عقائدهم وفى آلهتهم القدماء . وبدا له أن هذا الصراع قائم بين مجموعة من قوى الخير ومجموعة من قوى الشر ، واعتقد أن الخير ليس إلا كائناً إلهياً أطلق عليه اسم مازدا Mazda ، الذى كان إسماً لأحد الآلهة القدامى أو « أهورا مزدا » Ahurmazda ومعناها « رب الحكمة » الذى رأى فيه أنه هو « الله » وكان يحيط بأهورا مزدا جماعة من الأعوان يشبهون الملائكة وكان أعظمهم مكانة هو « النور » ويدعى « مثراه » Mathra ، ويقف ضد أهورا

---

١ ـ كان هناك اختلاف فى الرأى فى التحديد وقت ظهور زرادشت وهل الكثيرون من المؤرخين متفائلة فى القدم ، ولكن اتفقت آراء الباحثين أخيرا على أنه عاش فى القرن السادس ق . م

مزدا وأعوانه جماعة شريرة تزأسها روح شريرة قوية أطلقوا عليها اسم «أهريمان» Ahriman وهو الذى أخذه اليهود ثم المسيحيون من بعدهم وعرفوه تحت اسم «الشيطان».

وهكذا نشأت عقيدة زردست من الصراع القائم فى الحياة عينها. ولذا أصبحت قوة هائلة فى هذه الحياة. وكانت هذه الديانة من أنبل الديانات التى ظهرت فى العالم. دعت هذه الديانة كل إنسان وأهابت به أن يختار أحد الطريقين - إما أن يملأ قلبه بالخير والنور أو ينغمس فى الشر والظلمة وسواء اتخذ الانسان هذا السبيل أم ذاك، فإنه سيلاقى جزاءه ويحاسب على ما أتاه. وكانت هذه العقيدة أقدم ديانة ظهرت فى آسيا تقول بالحساب بعدالبعث. ولم تكن دعوة زردست إلاسموا بالعقائد القديمة التى كانت منتشرة بين أهله ورفعاً لآلهتهم القديمة إلى المثل الأعلى. ولهذا أبقى زرادشت على احترام الآريين للنار وعبادتهم لها على أنها رمز ظاهر للخير والنور كما احتفظ أيضاً بفكرة الكهنة مشعلى النار.

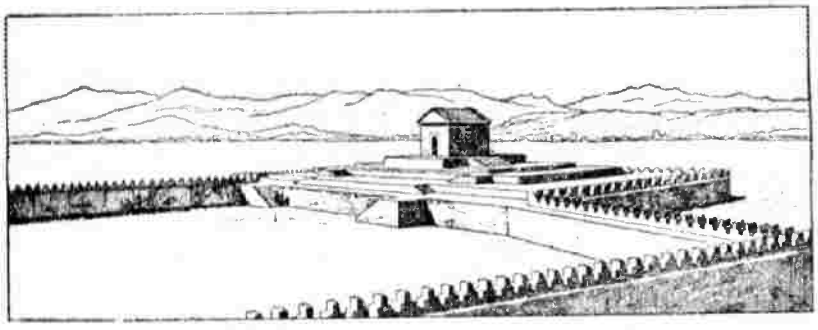

شكل ٥٧ - أقدم معبد فارسى، كما كان يوم تشييده
كشف الاستاذ هرتزفلد Herzfeld عن بقايا هذا المعبد فى مدينة بازار جادة Pasargadae ويعتقد أن الملك قورش Cyrus هو الذى شيده، ويقوم هذا المعبد على مقربة من قصر الملك وقبره فى تلك المنطقة (عن هرتزفلد Herzfeld)

ولما لم يستطع زردشت أن يؤثر فى قومه بدعوته الجديدة هجر الميديين وذهب إلى الفرس يدعو إلى دينه الجديد ولعله لم يجد فى السنوات الأولى إلا القليل من الاستجابة اليه، إذ تتضح له آماله ومخاوفه فى تلك المجموعة الصغيرة من التراتيل

التى تركها ، وهى على الأرجح ـ كل ما وصل الينا من أقوال ذلك النبى ، ونحن نعرف شدة شغف الآريين بتربية الخيل ، ولهذا لاندهش عندما نقرأ أن زردشت استطاع أخـــيراً أن يجعل أحد الملوك الأقوياء يؤمن به عندما شفى جواداً كسيحاً كان الملك يعتز به . وقبل أن تحين ساعة هذا النبى كانت عقيدته الجديدة قد لاقت نجاحا جديداً وثبت قدمها. ولم يحل عام ٥٠٠ ق . م حتى كانت الزردشتية هى الديانة الأولى بين الإيرانيين ، كما قبلها أباطرة الفرس أيضاً . وليس من المستبعد أن يكون الملك داراً شيد مقبرة هذا النبى . ولسنا نعرف من أقوال زردشت غير التراتيل التى ذكرناها آنفاً وإلى جانبها بعض تعاليمه التى احتفظت بها بعض المؤلفات التى جمعت فى العهد المسيحى المبكر بعد وفاة هذا النبى بعدة قرون . ويجمع هذه التراتيل كتاب الأبستا (الابستاف) Avesta الذى يمكننا أن نسميه « إنجيل الفرس ».

قيام الأمبراطورية الفارسية

لم يتحمس شعب من الشعوب لديانة زردشت كما فعلت مجموعة القبائل الايرانية التى نسميها « الفرس ». وقد آلت الينا عن طريقهم معلوماتنا عن هذه الديانة. سقطت دولة العيلاميين على إثر غزو الأشوريين لها فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد فتعرضت عيلام للغزو الخارجى، وتمكن الفرس من احتلالها، وعند سقوط نينوى عام ٦١٢ ق.م. كان الفرس ينعمون بالاستقرار فى المنطقة التى تقع فى الطرف الجنوبى لجبال زجروس، وشمال الخليج الفارسى وشرقه مباشرة، وشواطىء هذه المنطقة لا تبعد كثيراً فى طبيعتها عن حال المناطق الصحراوية بيد أن الوديان التى تتخلل الأراضى الجبلية البعيدة عن الساحل كانت وديانا غنية خصبة. وفى هذه الوديان احتل الفرس منطقة تبلغ الأربعمائة ميل طولا وكانوا أهل جبال أقوياء تغلب عليهم الفظاظة ويحيون حياة زراعية مستقرة لا توجد فيها أية منظمات جديرة بالاعتبار، ولم يكن لديهم فن أو كتابة أو أدب، ولكن أذهانهم كانت ملأى بذكريات ماضيهم، فبينما كانوا يقومون بحرث حقولهم أو رعى قطعانهم كانوا يقصون قصصاً يروون فيها أعمال أسلافهم وتقص تاريخ عقيدتهم القديمة التى كانوا يؤمنون بها.

وقبلوا أن يكونوا تحت ولاية أبناء عمومتهم الميديين الذين كانوا يسيطرون على البلاد الواقعة فى شمالهم الغربى، ثم جاء الوقت الذى نظمت فيه إحدى القبائل الفارسية التى كانت تقطن جبال عيلام أمورها وأصبحت مملكة صغيرة اسمها « أنشان » Anshan وبعد أن مر ستون عاما تقريباً على سقوط نينوى كان يحكم أنشان ملك فارسى يدعى قورش Cyrus، استطاع أن يجمع شمل القبائل الفارسية الأخرى فى أمة واحدة. وهكذا ثار قورش على حكم الميديين. فجمع

جنوده الفلاحين واستطاع بعد ثلاث سنوات أن يهزم الملك الميدى وأن يجعل من نفسه سيداً للمناطق الميدية بأسرها . ولفتت أعمال قورش أنظار الغرب وأخذوا يرقبونه وقلوبهم ممتلئة بالاعجاب والخوف .

كانت الحيوية المتدفقة فى هذا الفاتح الجديد لا ينضب لها معين . أما حيوية جنوده الفلاحين فقد كانت متدفقة طاغية لا يستطيع صدها أحد ، ويبدو أن الفلاحين الفرس كانوا رماة مهرة ، وكانت الغالبية العظمى فى الجيش الفارسى من الرماة ، الذين كانت عاصفة سهامهم التى يطلقونها على العدو من مسافة كبيرة تغمر الأعداء قبل أن يلتحموا بهم ويقاتلوهم يداً بيد . وبعد ذلك تتقدم فصائل الفرسان الفارسية المدربة ، التى كانت تبقى حول جانبى الجيش ، فإذا جاءت لحظة الهجوم هجموا وأكملوا القضاء على العدو ، وقد تعلم الفرس هذه التنظيمات من الأشوريين ، أعظم من عرفهم الشرق كجنود محاربين

وعقدت الدول العظمى ، بابل (كالديا) ومصر ، وليديا ، تحت حكم الملك كروسس Croesus فى غرب آسيا الصغرى ، وحتى إسبرطه فى بلاد الأغريق فيما بينها تحالفاً قوياً ضد هذا الخطر المفاجىء الذى ظهر وكأنه نور شهاب ثاقب فى سماء الشرق . ولم يضيع قورش لحظة واحدة فباغت كروسس بهجوم مفاجىء فى ليديا ، لأنه كان صاحب الفكرة فى إنشاء هذا الحلف ، ثم تتابعت انتصارات الفرس فسقطت ساردس Sardes عاصمة ليديا عام ٥٤٦ ق.م ووقع كروسس أسيراً بين يدى قورش . واستولى قورش أيضاً على الشواطىء الجنوبية فى آسيا الصغرى . وهكذا امتدت سيادة المملكة الفارسية الصغيرة فأصبحت فى مدى خمس سنوات صاحبة الصدارة فى العالم الشرقى ، وأصبحت تحكم المنطقة من جبال عيلام حتى البحر الأبيض المتوسط بما فى ذلك آسيا الصغرى أيضاً .

وعندما اتجه قورش شرقا ، لم يجد عناء فى هزيمة الجيش الكلدانى الذى كان

يقوده ولى العهد الشاب « بلشاصر » Belshazzar ، الذى ورد اسمه فى سفر دانيال (الإصحاح السابع) وأصبح اسماً معروفاً لكل شخص فى العالم المسيحى . أما الأسوار الضخمة العالية التى أقامها نبوخذ نصر حماية بابل فإنها لم تدفع عنها غائلة الهجوم. وسقطت المدينة عام ٥٣٨ ق. م. أمام هجمات الفرس دون مقاومة تذكر .

وهكذا . لم يمض على سقوط نينوى إلا أربعة وسبعون سنة فقط حتى نشب الصراع بين سكان الأراضى العشبية الشمالية وأهل الأراضى العشبية الجنوبية ، وانهار الشرق السامى تماماً أمام زحف القوى الهندو ـ أوربية .

وأسس قورش عاصمته وأقام قصره عنـــد بازارجاده Pasargadae حيث تم الكشف عن بقايا قصر هذا الفاتح العظيم . فنجد على إحدى الصور البارزة التى عثر عليها الجزء الأسفل من صورة الملك ، وعلى طيات لباسه نرى نقشاً مكتوباً بالعلامات المسمارية نقرأ فيه الكلمات الآتية :

« قورش ، الملك العظيم » . وفى هذا المكان أيضاً أقام قورش معبدا للديانة التى نادى بها زرادشت الذى كان ما زال حياً فى أيام قورش وبعد مضى تسع سنوات على سقوط بابل ، خر قورش ، أول فاتح عظيم من الجنس الهندو ـ أوربى ، صريعاً فى ميدان الوغى (عام ٥٢٩ ق. م) أثناء قتاله مع البدو القاطنين فى شمال إيران ، ووضع جثمانه بما يليق به من احترام وإجلال فى مدينة بازارجاده فى قبر ضخم يؤثر فى نفس الناظر إليه ببساطة عمارته . وقد رآه الإسكندر الأكبر فى ذلك المكان بعد انقضاء مائتى سنة .

صار غرب آسيا بأسره فى قبضة الملك الفارسى . وفى عام ٥٢٥ ق.م. أى بعد أربع سنوات فقط على وفاة قورش غزا ابنه قمبيز أرض مصر ، وبعد انتصار الفرس على آخر دولة قوية فى الشرق ، أصبحت حدود الأمبراطورية الفارسية مشتملة على الشرق المتحضر كله من دلتا النيل حتى البحر الإيجى بما فى ذلك جميع البلاد

شكل : ٥٨ ــ مقبرة قورش فى بازار جاده
من المحتمل أن يكون قورش نفسه شيدهذه المقبرة على مقربة من معبده وقصره، وظل جثمانه فيها مايقرب من مائتى سنة عندما جاء الاسكندر الاكبر فوجد الجثه ملقاة على ارضية المكان بعد أن جردها السارقون مما كان عليهـا من حلى . وأمـر الاسكندر ، فوضعوا الجثة فى مكانها وأغلق باب حجرة الدفن ، ولكن اللصوص عادوا فنهبوها ، وهى الآن خالية من كل شىء (عن رسم بالريشه للمصور جورج بلاومان George T. Plowman)

التى حول الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، وامتدت من هذه الحدود الغربية صوب الشرق حتى كادت تصل إلى الهند ، ولم يستغرق هذا العمل الضخم سوى خمسة وعشرين سنة منذ اليوم الذى قهر فيه قورش جموع الميديين . وقد كان للإمبراطورية الأشورية الفضل فى تمهيد الطريق لهذا العمل العظيم ، إذ أن الفرس بدأوا يقتبسون الكثير عمن سبقهم من الحضارات .

حضارة الأمبراطورية الفارسية

ورأى الفرس أن مدينة بابل كانت مدينة عظيمة فخمة وحولها أسوارها الضخمة التى أقامها نبوخذ نصر والتى كانت تمتد من النهر إلى النهر . كما شاهدوا مبانيه الهائلة التى يراها الناس من مسافة بعيدة فى السهل البابلى . وكانت هذه المدينة المركز التجارى الأول فى غرب آسيا وكانت أعظم سوق عرفه الشرق القديم . أما على ضفاف النيل فقد حكم الأباطرة الفرس المدن الرائعة التى تزخر بالآثار العظيمة التى تحدثنا عنها فيما سلف وكان لتلك الحياة المتحضرة التى رآها الفرس على ضفاف النيل وما رأوه أيضا على ضفاف الفرات أثر كبير عليهم لما سيتضح لنا .

وكانت اللغة الأرامية وهى اللغة التى كان يتكلم بها التجار الأراميون الذين كانوا يملئون الأسواق البابلية ، قد أصبحت فى ذلك الوقت لغة الهلال الخصيب بأسره . وكانت الوثائق التجارية تكتب بالأرامية بالقلم والمداد على أوراق من البردى ، إذ كانت الرقم الفخارية فى طريقها إلى الزوال شيئا فشيئاً . ولهذا رأى الموظفون الفرس أنهم مضطرون لتأدية أعمالهم الحكومية ، مثل جمع الضرائب باللغة الأرامية فى جميع أنحاء النصف الغربى للامبراطورية الفارسية ، وكانوا يبعثون برسائلهم الحكومية إلى بلاد النيل وغرب آسيا الصغرى باللغة الأرامية ، لأنها كانت اللغة العالمية فى جميع الأعمال الخاصة بالتجارة والإدارة .

ولهذا كانت حكومة الملوك الفرس ، مثلها فى ذلك مثل الإمبراطورية الأشورية حكومة ذات لغتين ، أى أنهم كانوا يستعملون لغتين هما الأرامية والفارسية القديمة واستخدم الفرس فى كتاباتهم للغة الفارسية حروفا أرامية ، كما يفعل اليوم من يكتبون الانجليزية بحروف لاتينية بيد أنه كان لهم إذ ذاك حروف هجائية مسمارية ربما أخذوا فكرتها عن الكتابة الأرامية .

ولقد دلت البحوث الأثرية الأخيرة عند إكباتانا عاصمة الميديين على أن الميديين ابتدعوا حروفا هجائية جديدة تبلغ تسعة وثلاثين علامة مسمارية . وكانوا يستخدمون هذه الحروف فى كتابة اللغة الفارسية على الرقم الفخارية . كما استخدموها أيضا كلما أرادوا أن يسجلوا حقائق تاريخية على المبانى الحجرية . وهكذا بدأ الإيرانيون الذين ظلوا فترة طويلة دون علم الكتابة ، يسجلون حقائق ووثائق تاريخية لتخلد بعدهم على مر الدهور . وتعتبر هذه الآثار أقدم ما وصل إلينا من وثائق ميدية أو فارسية .

وترجع أهمية المدونات المسمارية الفارسية إلى أنها هى التى مكنتنا من حل رموز وقراءة النقوش المسمارية فى غرب آسيا ، وذلك لأنه بعد أن احتلت الآرامية مكان لغة بابل وأشور جاء الوقت الذى لم يكتب فيه أحد من الناس أى رقم بالكتابة المسمارية ، وآخر ماوصل إلى أيدينا رقيم عليه عبارات كلدانية يرجع تاريخها إلى عام ٧ ق . م . أى أنه قد مضى نحو ألفى سنة على آخر شخص كان يستطيع

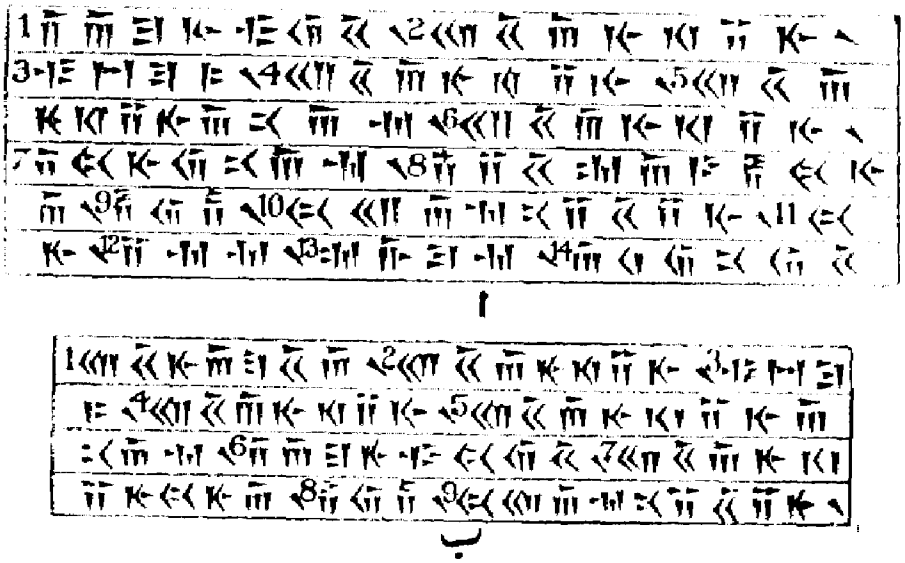

شكل : ٥٩ ــ النقشان الفارسيان القديمان اللذان كانا أول النقوش التى حلت رموزها وقرئت

قراءتها ، وهكذا ظل تاريخ بابل وأشور مدفوناً تحت أنقاض المدن التى قامت على ضفاف دجلة والفرات .

كانت الكتابة المسمارية الفارسية مكونة من تسعة وثلاثين حرفا هجائيا ولهذا لم تكن صعبة . وقد تمكن جروتفند Grotefond وهو مدرس ألمانى ، فى أوائل القرن الثامن عشر أن يتعرف على اسم دارا واكزركس وبعض الألفاظ الفارسية الأخرى . ثم استطاع عدة باحثين أوربيين آخرين أن يتوصلوا إلى معرفة أصوات أكثر الحروف الهجائية المسمارية فى اللغة الفارسية ، وأتم السير هنرى رولنسون وهو ضابط بريطانى حل رموز الكتابة المسمارية الفارسية فى عام ١٨٤٧ وأصبح العلماء منذ ذلك التاريخ يستطيعون قراءة النقوش التى كتبت باللغة الفارسية القديمة ، ولكن عدد هذه النقوش كان ضئيلا إذ ذاك وكانت الأهمية الكبرى لقراءة هذه النقوش الفارسية هى أنها ربما كانت وسيلة تساعدنا على معرفة قراءة الكتابة المسمارية البابلية .

فقد لاحظ الباحثون منذ أمد بعيد أن النقش الثالث فى أثر بهستون Behistun العظيم للملك داريوس قد كتب بنفس الحروف المسمارية التى توجد على كثير من الرقم الفخارية وعلى بعض الآثار التى عثر عليها فى بابل فاعتقد الباحثون أنه إذا أمكننا قراءة النقش الثالث فى بهستون ، يصبح فى استطاعتنا قراءة الوثائق البابلية والأشورية القديمة ونجح راولنسون بعد ثلاث سنوات قضاها فى دراسة نقوش بهستون من أن يحل رموز بعض الكتابة البابلية أيضاً المكتوبة بالطريقة المسمارية وعند ذاك بدأت أطلال المدن البابلية وخرائب الدور الأشورية تفصح عما خبأته من أخبار ، وتخبرنا رويدا رويدا عن العصور الثلاثة العظيمة فى تاريخ بلاد الدجلة والفرات . وهى فترة تزيد على ألفين وخمسمائة عام من تاريخ الإنسان فى غرب آسيا ، كان العالم يجهلها جهلا مطبقاً .

ويرجع الفضل فى قدرتنا على قراءة المدونات المسمارية ومعرفتنا لهذه المعلومات الجديدة إلى الوثائق التى خلفها لنا ملوك الفرس .

وكان تنظيم هذه الإمبراطورية الشاسعة . التى تمتد من نهر الهند حتى البحر الإيجى (تقرب من طول الولايات المتحدة من الشرق إلى الغرب) ، ومن المحيط الهندى حتى صحراء بحر الخزر ، عملا جبارا ، كانت هذه الإمبراطورية تتطلب مجهوداً فى التنظيم على نطاق واسع ، أعظم من أى نوع من التنظيم حاول أى حاكم آخر أن يفعله من قبل . كان هذا العمل أكبر من أن يتم كله على يدى قورش الذى بدأه ثم أتمه دارا الأكبر (٥٢١ — ٤٨٥ ق . م) الذى سيظل التنظيم الذى وضعه عملا من الأعمال الخالدة المجيدة فى تاريخ الشرق بل فى تاريخ العالم كله .

كان حكم دارا حكما عادلا رحيما مستنيراً ، ولكنه لم يكن لرعاياه من الشعوب أى صوت فى الحكومة ، وكان العاهل الفارسى يلقب بالملك الأكبر منذ أيام قورش ، وكان كل ما يقرره الملك الأكبر يصبح قانوناً وعلى الشعوب أن تنحنى أمام كلمته ، ويقول دارا فى نقش بهستون « لقد انصلحت هذه البلاد لأوامرى والحمد لأهورا مزدا ، وكل ما أمرتهم بعمله كانوا ينفذونه » ونلاحظ هنا حقيقة هامة نستشفها من هذا النص ألا وهى أن هذا النظام لم يكن محاولة للحكم على نطاق أعظم مما عرفه العالم حتى ذلك الوقت فحسب ، بل كان حكومة فى قبضة رجل واحد . ولم ينس العالم القديم المثال الذى وضعته الإمبراطورية الفارسية الشاسعة التى حكمها فرد واحد .

وفى سبيل إتمام هذا التنظيم العظيم عمل دارا على أن يولى نفسه ملكا فعليا على كل من مصر وبابل ، ثم قسم باقى الإمبراطورية إلى عشرين ولاية ، وكانت كل

ولاية من هذه الولايات تعرف باسم « ساتربيه » Satrapy لأن كلا منها كان تحت إمرة وال أو حاكم يدعى ساتراب Satrap يعينه الملك الأعظم . وأنه وإن كانت هذه التنظيمات شبيهة بما كان متبعا فى امبراطوريات الكلدانيين وآشور ومصر إلا أنها تعد خطوة تقدمية فى نظام حكم الولايات تحت إمرة الحكام. وفى الواقع كانت الإمبراطورية الفارسية بنظامها الجديد ، المثال الأول فى التاريخ على مجموعة من الشعوب الخاضعة التى تحكم كأقاليم. ويمكن أن نطلق على هذا النظام « أنه نظام إقليمى » وتمتعت الأمم الخاضعة أو بالأحرى الأقاليم الواقعة تحت الحكم الفارسى بقسط كبير من الاستقلال فى إدارة شئونها المحلية طالما كانت تقدم للملك الأكبر الجزية المفروضة عليها . وطالما كانت ترسل لجيشه جنودا . ولقد عول الملك الأكبر فى سبيل الوقوف على أسرار أى ثورة محلية ومنعها ، كثورة حاكم أو شعب ضد الحكم الفارسى ، على تعيين موظفين يقيمون فى كل دولة من الدول التابعة له . وكان يطلق على هؤلاء وفقا لعادة مصرية قديمة : « آذان الملك أو عيونه » . وكانت مهمتهم تنحصر فى إبلاغ الملك أية قرينة على العصيان ، وكانت كل هذه التنظيمات تحسينات أدخلها الملك الأكبر على نظام الحكم فى الإمبراطورية الأشورية .

كانت الأراضى الزراعية مقسمة إلى إقطاعات شاسعة فى حوزة نبلاء أقوياء ، أو بعض ملاك الأراضى الأغنياء ، فلم يكن هناك إلا عدد ضئيل من الزراع الذين يملكون أراضيهم ، وكانوا جميعا يدفعون ما عليهم ، لتقدم مع الجزية التى كانت مفروضة على جميع أنحاء الإمبراطورية وكانت هـــذه الجزية تجبى عينا فى المنطقة الشرقية من الإمبراطورية وذلك وفقا للتقاليد القديم .

أما فى المنطقة الغربية من الإمبراطورية ولاسيما ليديا والمستعمرات الإفريقية فى غربى آسيا الصغرى حيث كانت العملة المعدنية معروفة منذ عام ٦٠٠ ق . م .

فإن الجزية كانت تدفع بالعملة . أما الأقطار الشرقية، مصر وبابل، وبلاد الفرس نفسها فلم تكن بعد قد اقتبست هذه الطريقة ، وعلى أية حال فقد شرع دارا فى سك عملة ذهبية كما سمح لولاته أن يسكوا عملة فضية . وكانت النسبة ١٣ : ٢ . أى أن الذهب كان يعادل ثلاث عشرة مرة قيمة الفضة وكان للعملة المسكوكة فضل كبير فى تيسير التبادل التجارى بين الأمم ولهذا أصبح استعمالها عاما وأكثر انتشارا فى الشرق الأدنى خلال العهد الفارسى .

ويمكننا أن نقول بوجه عام أن دارا مثله فى ذلك كمثل اليابانيين فى العصر الحديث أظهر مهارة فائقة فى اقتباس خير ما فى الحضارات العظيمة التى تحيط به لكى يطبقها فى حكومته ، فلقد أدرك سريعا الخير الذى يعود من استخدام التقويم المصرى الذى يقسم السنة إلى إثنى عشر شهرا كل منها ثلاثون يوما ، فأمر باقتباس هذا التقويم فى الحكومة الفارسية، وأعجب دارا إعجابا شديدا بما وصل إليه المصريون فى الطب . فأمر بإعادة أحد رؤساء الكهنة الذى كان على جانب عظيم من المعرفة ، وكان أسيرا فى بلاد الفرس فأصدر إليه تعليماته ليذهب إلى صالحجر ؛ وهى مدينة تقع فى غربى الدلتا ، وأن يعيد بناء مدرسة طبية مصرية كانت قد تهدمت مبانيها ونحن نقرأ تلك القصة على قاعدة تمثال لهذا الكاهن الكبير فى مجموعة متحف الفاتيكان بروما ونعرف منها كيف نفذ هذا الكاهن أوامر دارا وأعاد بناء بناءى المدرسة . وكانت إحدى الدارين تختص بالمدرسة نفسها ، أما الأخرى فيرجح أنها كانت المكتبة . وجمع لها الطلبة من أرقى العائلات ليدرسوا فيها ، وهيأها بما يلزمها من « الآلات » التى كانت تستخدم على الأرجح فى العمليات الجراحية . ويستطرد النقش قائلا « لقد فعل صاحب الجلالة (أى دارا) ذلك لإدراكه قيمة هذا الفن (الطب) الذى ينقذ حياة كل من أصابه السقم » . وهكذا أسس هذا العاهل الفارسى الكبير أقدم مدرسة طبية كمؤسسة ملكية .

شكل : ٦٠ ــ جنود من الفرس

بالرغم من أن هؤلاء الجنود كانوا يحملون الحراب عند تأديتهم عملهم كحرس فى القصر ، الا انهم كانوا من الرماة كما نرى من كنانة السهام المعلقه فوق ظهورهم والقوس المعلق على الكتف اليسرى . وكان من عادة جنود الفرس أن يشرعوا حرابهم وهم ملتفون حول الملك فى ساحة القتال ، تأمل الملابس الفخمة التى يلبسها حراس القصر .

هذا الرسم مأخوذ من أصل زاهى الالوان على قوالب مزججة وهو فن اقتبسه الفرس عن الاشوريين واستخدموه فى تجميل جدران القصور .

وفى عهد دارا . أيضا قام عالم الفلك الكلدانى « نبوريمانوا » Naburimannu بأبحاثه الفلكيه فى بابل ، كما أن هناك دراسات أخرى من هذا النوع قام بها « كيدنو » Kidinnu فى عهد الحكم الفارسى أيضا .

وليس أدل على حنكة دارا الأكبر السياسية من حرصه على أن يجعل من بلاد الفرس دولة ذات قوة بحرية عظيمة ، ولم يكن يسيرا على أمة تقطن قلب

اليابسة ومكونة من جماعات من الرعاة والفلاحين ، وتفصلها عن الماء شواطىء صحراوية أن تسيطر على البحر وتسوده . واضطر دارا إلى استخدام فلاحين من الأجانب ، ومن أعماله أنه بعث بملاح ماهر من ملاحى البحر الأبيض المتوسط يدعى « سكيلاكس » Scylax ليكتشف نهر السند فى الهند . ثم أمره دارا بعد ذلك أن يبحر إزاء شواطىء آسيا من مصب نهر السند متجها صوب الغرب حتى خليج السويس . فكان سكيلاكس أول بحار غربى عرفناه أبحر بإزاء هذا الشاطىء الجنوبى لآسيا ، ذلك الشاطىء الذى كاد أن يكون مجهولا لدى الشعوب الغربية وكان ذلك حوالى عام ٥٠٠ ق . م .

وفى السويس أعاد دارا حفر القناة المصرية القديمة التى كانت تربط النيل بالبحر الأحمر ، وكانت قد ملئت بالطمى والرمال منذ زمن غير يسير . وقد عثر على قطع متناثرة للوحات حجرية كبيرة ، وكان دارا قد أقامها على طول الطريق القديم لهذه القناة . وتحمل هذه اللوحات نصا يتحدث عن إعادة حفر هذه القناة . وهذه هى بعض كلمات « الملك العظيم » « أمرت بحفر هذه القناة من مجرى الماء الذى يوجد فى مصر والمعروف باسم النيل حتى البحر (البحر الأحمر) الذى يمتد من بلاد الفرس ، ثم حفر هذه القناة كما أردت ، وأبحرت السفن من مصر إلى بلاد الفرس عن طريق هذه القناة ، وذلك وفقا لمشيئتى » . ومن الواضح أن دارا كان يراوده أمل أثبتت الأحداث خطأه وهو جعل الشاطىء الجنوبى لبلاد الفرس يساهم فى النشاط التجارى المطرد بين الهند وعالم البحر الأبيض المتوسط .

فكما كانت بلاد الفرس فقيرة فى صغار الملاك للأراضى كانت تفتقر أيضا إلى التجار الصغار الطموحين الذين ربما ظهر منهم مغامرون ينهضون بشئون التجارة .

وأحسن دارا معاملة المدن الفينيقية ، ولم يفعل مافعله الأشوريون ونجح فى إعداد أسطول حربى فينيقى ضخم . وسوف نرى أن ابن دارا اكزركس Xerxcus (خشيارشا) استطاع أن يعتمد على المئات من السفن للأعمال الحربية وللنقل فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وعندما دعت الحاجة إلى استخدامها فى غزو أوربا . وهكذا حقق الملوك الفرس المستنيرون مالم يحققه الأباطرة الأشوريون وأصبحت فارس أعظم قوة بحرية فى آسيا .

وحافظ الأباطرة الفرس على طرق المواصلات بشقهم طرقا صالحة تمتد فى جميع أنحاء الإمبراطورية من أقصاها إلى أقصاها ولعل هذه الطرق أسدت للامبراطورية الفارسية مانسديه لنا الآن السكك الحديدية ولكن على نطاق ضيق بالطبع .

وكان للرسل الملكيين نظام بريدى أدق وأسرع مما كان متبعاً فى الإمبراطورية الأشورية ، وكان هؤلاء الرسل يمتازون بسرعة مدهشة . ولكن نقل البضائع كان يحتاج إلى وقت أطول فمثلا من سوسا Susa أو برسبولس Persepolis إلى البحر الإيجى كان يتطلب من الوقت ما يعادل ما نحتاجه الآن لنطوف حول العالم ومما يدل على فائدة تلك الطرق انتشار ذلك النوع من القوت الذى ينمو فى البيت ألا وهو الدجاج . فقد كانت فى الأصل دجاجة برية تعيش بين الأدغال فى الهند ثم استأنسها الهنود الشرقيون ولم تصبح منتشرة فى منطقة البحر الأبيض المتوسط حتى جاءت بها وسائل المواصلات الفارسية من الهند إلى البحر الإيجى .

كانت مدينة سوسا العيلامية القديمة التى تقع فى جبال زجروس هى العاصمة وفيها كان يقطن الملوك ، بيد أن هواء بابل المعتدل اجتذب العاهل الفارسى أثناء الشهور الباردة فى السنة فكان يرحل إلى قصور الإمبراطورية الكلدانية البائدة ليقيم بها . وقد حرص ملوك الفرس الأوائل على أن يقيموا فى وطنهم الفارسى

القديم ، رغم بعده ولقد رأينا أن قورش قد أقام قصراً فخماً عند بارازجاده على مقربة من المكان الذى هزم فيه الميديون وأن دارا قد بنى أيضاً قصراً رائعاً عند برسبولس التى تبعد نحو الأربعين ميلا جنوب قصر قورش . وبالقرب من أطلال برسبولس توجد مقابر دارا واكسركسيس وغيرهم من الأباطرة المتأخرين . لأنهم كانوا حريصين على أن يدفنوا فى موطنهم الأصلى فى فارس .

وأخذ البناءون الفرس يتعلمون فن المعمار من الشعوب الشرقية القديمة التى أصبحت خاضعة لإمبراطوريتهم . فاقتبسوا المدرجات الهائلة التى كانت تقوم عليها القصور الفارسية عن البابليين . كما اقتبسوا الثيران المجنحة التى تقوم أمام أبواب القصر والسلالم المؤدية إليها عن آشور . أما بواكى الأعمدة التى تمتد أمام القصور وتملأ أبهاءها والتى كانت أقدم ردهات ذات أعمدة بنيت فى آسيا ـ فإنهم اقتبسوها من مصر إذ كانت تقوم على ضفاف النيل منذ أكثر من ألفين من السنين قبل ذلك التاريخ [1] وكذلك جدران القصور الزاهية الألوان والتى بنيت من طوب مزجج فإنها جاءت إلى بلاد الفرس من الغرب . وهكذا اندمجت الحضارات العظيمة التى حكمها الأباطرة الفرس فى حياة إمبراطوريتهم .

وأدى اندماج تلك الحضارات القديمة التى نشأت فى الشرق الأدنى تحت نظام شامل إلى إيجاد حالة جديدة لها خطرها الكبير فى تاريخ أوربا فقد رأينا قورش وكيف وصلت انتصاراته إلى شواطىء البحر الإيجى ورأينا المدن الإغريقية التى تقع فى غربى آسيا الصغرى وقد أصبحت تحت الحكم الفارسى . وهكذا امتدت تلك الإمبراطورية العظيمة على طول جنوبى أوربا . وإذا تأملنا خريطة للعالم ووضعنا فى أذهاننا أن تقدم الإمبراطورية نحو الغرب قد امتد فى النهاية تحت حكم دارا

---

١ ـ مما يلفت النظر أن الفرس لم ينقلوا العقد فى البناء عن البابليين . فإن جميع الأبواب فى قصر دارا تعلوها قطعة حجرية أفقية هى ماتسميها « العتب » وقد نقلوا ذلك من الأبواب المصرية

فشمل الأراضى الاوربية حتى نهر الدانوب ، فإننا ندرك أن وقوع اصطدام حربى بين الإمبراطورية الفارسية وبين بلاد الأغريق أصبح أمراً لا مفر منه · وسيكون لهذا الموقف فيما بعد أثر أعظم ، عندما يؤدى إلى اندماج أشد قوة بين حضارات الشرق الأدنى وبين الحياة فى أوربا الغربية منها إلى درجة لم تكن ميسورة من قبل . ولم تكن تلك الحروب بين بلاد الفرس وأوربا ذات أهمية كبرى بالنسبة لبلاد الفرس ، ولكنها كانت العامل الاساسى فى تطور تاريخ بعض الامم الصغيرة مثل الاغريق .

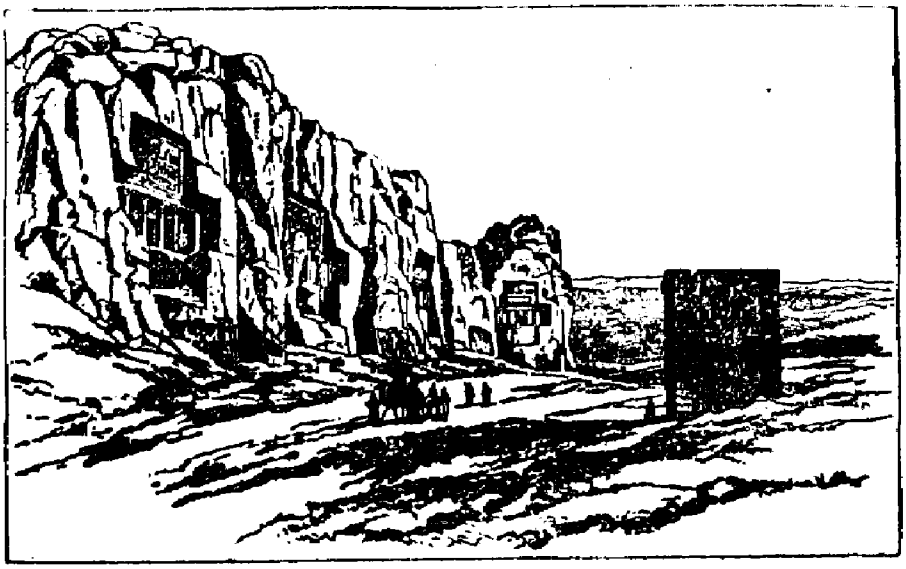

شكل : ٦١ ــ مقابر ملوك الفرس الاوائل على مقربة من مدينة برسيوليس (تخت جمشيد)

بعد موت قورش وابنه قمبيز، بدأ ملوك الفرس منذ عهد دارا الاول فى نحت مقابرهم فى واجهة هذا الصخر على مسافة يسيرة من مدينة برسيوليس · وهنا مقابر دار الاعظم واكسركسيس ودارا الثانى وارتا كسركسيس الثانى وارتا كسركيسيس الثالث ودارا الثالث وكلها منحوتة فى الجبل خلف قصور برسيوليس. ولو أضفنا عليها مقبرة كورش (شكل ٥٨) يصبح لدينا مقابر جميع الملوك الفرس التسعة ماعدا قمبيز الذى غزا مصر فان قبره لم يعثر عليه حتى الآن · وأمام كل مقبرة بضع أعمدة يفتح وسطها الباب · وفوق الاعمدة نرى مربعا منحوتا فى الصخر فيه رسم الملك يتعبد للاله أهورامزدا أمام مذبح للنار وقد فتحت هذه المقابر وسرقت محتوياتها كما حدث لمقبرة كورش وجميع هذه المقابر لاتحوى شيئا الآن اللهم الا التوابيت الحجرية الضخمة الموضوعة فى اماكن معدة لها فى الجدران. تلك التوابيت التى دفن فيها دارا واكسركسيس وغيرهم من الملوك وعائلاتهم ·

كان الحكم الفارسى بالنسبة للعالم الشرقى على وجه العموم فترة رخاء وسلم استمرت نحو قرنين من الزمان (انتهت حوالى ٣٣٠ ق.م) .

ومع تقدم الزمن لم يعد ملوك الفرس فى قوة قورش أو دارا أو مهارتهما ، فقد أحبوا الترف وركنوا إلى الدعة وألقوا كثيراً من مهام الحكم على عاتق ولاتهم وموظفيهم ، وترتب على ذلك أن أصبحت الحكومة فى حالة فساد وعجز ، وكان مصيرها إلى الضعف والاضمحلال .

وكتب المتأخرون وخاصة الاغريق عن الحكام الفرس وصوروهم لنا كطغاة شرقيين قساة القلوب غير متحضرين ولكن هذا الوصف ملىء بالتحامل وخاصة إذا تحدثنا عن الحكام الفرس الأولين . فلقد شعر بعض هؤلاء الأباطرة الفرس شعوراً عميقا بواجبهم فى أن يهيئوا حكومة عادلة لأمم الأرض . فيقول دارا الأكبر فى نقش بهستون « ولهذا مد أهورا مزدا يد المساعدة لى ... لأنى لم أكن شريراً ، ولم أكن كذوباً ولم أكن طاغية ، وما كان أحد من أجدادى هكذا . لقد حكمت طبقاً لقواعد العدل » ..

ولا ريب فى أن الامبراطورية الفارسية . أعظم امبراطورية شهدها العالم القديم تمتعت بحكومة عادلة رحيمة لم تعدلها أى حكومة سبقتها فى بلاد الشرق .

وتدل كثير من هذه التصريحات مثل تلك التى وردت فى نقش دارا وأشرنا اليها منذ لحظة على أن الحكام الفرس كانوا أتباعاً مخلصين لتعاليم زردشت . وقد ساعدتهم قوتهم على نشر هذه العقيدة النبيلة فى جميع أنحاء غربى آسيا الصغرى .

وهنا ظهر متراس ، الذى كان زردشت ينظر اليه على أنه أحد أعوان أهورا مزدا ظهر على أنه بطل النور ، وفى آخر الأمر إلهاً للشمس ، وطغا اسمه على اسم أهورا مزدا شيئاً فشيئا . وانتقل متراس من آسيا الصغرى إلى أوربا ، وزاد انتشار عبادته فيما بعد فى جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية ، وأصبحت بعد ذلك منافساً خطيرا

للديانة المسيحية لأنه فيما يتعلق بالديانات ، وبالنسبة لكثير من الأمور الأخرى أتمت الامبراطورية الفارسية تحطيم الحدود الدولية ، وكان ظهورها بداية فترة طويلة من الزمن تنافست فيه الديانات الرئيسية فى الشرق لنيل مركز الصدارة بين جميع الأمم .

كانت بلاد الفرس آخر قوة عظيمة عرفها الشرق الأدنى القديم . وقد آن الأوان لنوجه أنظارنا صوب الغرب لنشهد تقدم الحضارة فى بلاد أوربا ، ولكن لنقف هنيهة لنتذكر ما حققته الشعوب الشرقية القديمة . لقد اخترع الشرق الأدنى لأول مرة فى التاريخ مجموعة كاملة من المخترعات التى لم تتفوق عليها مخترعات أخرى سوى مخترعات العالم الحديث . كانت الشعوب الشرقية أول من ابتدع الفن والهندسة والأدب والعلوم . وكان لدى الشرقيين أقدم القوانين المكتوبة وتمت بينهم أقدم عقيدة نادت بوحدانية الله ورعايته الأبوية لجميع البشر .

وإلى جانب ذلك فقد قبل الشرق دائماً فكرة الملكية كأمر طبيعى ولم يخطر فى ذهن أحد أن يؤخذ رأى الناس فى الطريقة التى يحكمون بها . ولم يعرف الناس ما نسميه الآن الحرية كما نفهمها فى عصرنا الحالى ، ولم يحلم أحد بالنظام الذى يجعل الناس أصحاب الكلمة فى حكم أنفسهم وهو ما نسميه بالديموقراطية .

وكما قبل الشرقيون حكم الملوك بدون مناقشة فأنهم آمنوا بحكم الآلهة . فاعتقدوا أن أى عاصفة تثور تسبب فيها إله من الآلهة وأن كل كسوف للشمس كان من عمل إله غاضب أو روح شريرة ولم يهتم الشرقيون كثيراً ليعرفوا الأسباب لحدوث هذه الظواهر ولهذا لم تتقدم بينهم العلوم الطبيعية تقدما ذا شأن . أما الديانة فشوهتها الخرافات وحرم الفن والأدب من بعض مصادرهما الأساسية اللازمة للتطور والالهام .

وهكذا ما زال أمام الناس أشياء كثيرة لا حصر لها ، وكان عليهم ان يصلوا اليها ، وذلك فى إدارة الحكومة وفى التفكير فى دنيا الطبيعة ، وفى إدراك ما فى الطبيعة من غرائب وجمال ، وفى التعمق فى الفن والأدب وفى غيرهما من الميادين وقدر لهذا التقدم أن يتم مستقبلا فى أوربا ، التى تركناها عند حديثنا عن العصر النيوليتى فى آخر الفصل الثانى .

ويجب علينا أن نتتبع الآن سير الحضارة وهى تنتقل من الشرق الأدنى القديم مارة بشرقى البحر الأبيض المتوسط لتصل إلى سكان أوربا ، وذلك منذ أربعة آلاف وخمسة آلاف سنة .

« انتهى »